

الفكر العربي المغربي عند الجابري بين أزمة الحداثة وكيفية قراءة التراث.

أودينة خالد

أستاذ مساعد قسم - أ - جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

الملخص: نوضح من خلال هذا المقال قضية جد حساسة ترتبط بقضية الوجود والعدم أي ما يمكن الفرد من تحقيق استمراره كذات واعية ومبدعة أو تابعة آليا لفكر غريب عنها وعن تراثها، حيث يبرز لنا الجابري، كيف بقي العرب تائهين بين نقيضين، الانبهار بما وصل إليه الغرب من تقدم علمي وتكنولوجي، وبين الحفاظ على الهوية وعدم الاندماج في الحضارة الغربية التي تسعى للسيطرة والهيمنة، أن التراث هنا قد وظف كسلاح إيديولوجي لمقاومة التحديات.

ووضح لنا كيفية النهوض عن إعادة النظر في العلاقة بين الماضي والحاضر، عن طريق التخطيط لثقافة الماضي وثقافة المستقبل، ومنه توفير شروط المواكبة والمشاركة، أي مواكبة الفكر المعاصر والمشاركة في إغنائه وتوجيهه ويكون ذلك عن طريق التحليل الإيستيمولوجياالبنوي لا الإيديولوجي لثقافتنا العربية الإسلامية قصد تحديد أساسياتها المعرفية والمنطقية التي شكلت العقل العربي من أجل الرقي بمختلف معارفنا في إطار من التواصل الفكري مع التراث التاريخي للإنسان العربي، ولهذا يجب التواصل مع الماضي، وبناء أسس صحيحة لجعله تراثا معاصرا لنا وفق الشروط أو الظروف التي نعيشها.

الكلمات المفتاحية: التراث، الحداثة، الهوية، النهضة، العقلانية السوسيو تاريخية.

Résumé :

La pensée arabe maghrébine chez El Djabiri entre la crise de la modernité et la manière de lire et interpréter le patrimoine culturel.

Via cet article, nous essayons d'éclairer sur une question sensible, relative à celle de l'existence et de la non-existence. C'est-à-dire ce qui permet à l'individu d'assurer sa continuité en tant qu'être conscient, créatif ou lié automatiquement à une pensée étrangère à lui et à ses coutumes et traditions (son patrimoine).

El Djabiri nous a montré comment les arabes ont été perdus entre deux paradoxes : la fascination du progrès scientifique et technique de l'occident et la préservation de son patrimoine et de son identité comme étant une arme idéologique et de résistance face aux défis et donc la non intégration dans la civilisation occidentale qui veut dominer.

Il nous a, aussi, clarifié la manière de se progresser en revoyant la nature de la relation entre le passé et le présent par une planification de la culture du passé et celle à venir ; ce qui veut dire, fournir les conditions d'accompagnement et de participation (accompagner la pensée contemporaine et participer à son enrichissement et sa destination). Tout ceci ne se réalise qu'avec l'analyse épistémique constructiviste non- idéologique de notre culture arabo-musulmane. L'objectif de cette analyse est d'indiquer les fondements épistémologiques qui ont bâti le cerveau arabe pour un essor de toutes nos connaissances dans le cadre d'une communication des pensées avec le patrimoine historique de l'être arabe.

C'est pourquoi, il faut faire des liens avec le passé et construire des piliers solides pour rendre notre patrimoine moderne selon nos conditions et nos circonstances.

Mots clefs :

Patrimoine, modernité, identité, révolution, rationalisme, sociohistorique.

مقدمة:

يمكن القول أن الحضارة العربية الإسلامية قد عرفت تقدماً ملموساً ونهضة واسعة في كل المجالات، كما عرف عنها وما كان ذلك ليتحقق لولا تداخل العوامل الداخلية والخارجية، على المستوى الفكري والديني والسياسي.. الخ، وما التراث الفلسفي العربي الإسلامي إلا أحد الإفرازات الناتجة عن الاحتكاك الإنساني التاريخي والاجتماعي الثقافي الفكري والحضاري، ويعتبر الفكر العربي المغربي على وجه الخصوص فكراً ليس معزولاً بل هو مرتبط بالتراث الفكري الإنساني، ومتأثر كذلك بالتراث الإسلامي، لذلك من الضروري إذا أردنا معرفة تراثنا المغربي معرفة معمقة وهادفة وواعية بأشكاله بلورته وتطويره وتجديده.

وتظل مشكلة التراث والحداثة قضية راهنة طرحت ابتداءً من القرن التاسع عشر، ولا تزال إلى يومنا هذا تنازع فكر الطبقة المثقفة، لأن التراث يمثل الرمز الممثل للهوية والمحافظة عليها من أي خطر يهددها ويريد طمسها، لكن ما شهدته القرن العشرين محاولات للعودة إلى التراث وإحيائه فاق ما كان متداولاً، فقد أصبح حلماً يراود الكل، وتباينت القراءات والآراء بين مسترجع له للاستفادة منه، وبين عائد إليه لتعويض النقص الذي اعتري الحاضر العربي، وعجزه عن بناء تصور للمستقبل، فيما رأى البعض الآخر أنه سبب الكوارث التي يمر بها العالم العربي.

وفي سياق ذي صلة عرف الفكر الفلسفي في المغرب خلال الربع الأخير من القرن العشرين انتعاشاً كبيراً يمكن التأكد منه عن طريق تبيان ملامحه العامة من خلال الآثار الفكرية المتعددة ذات الطبيعة الفلسفية، **كفكر عبد الله العروي** الذي عمل على بلورة مشروع فكري مرتبط بأسئلة تاريخ الفلسفة وربطها بال لحظة التاريخية المغربية في أبعادها المختلفة، و**طه عبد الرحمن** المتميز في فكره الذي يحمل قصيدة واضحة وقراءة عقلانية عملية وصوفية معقلنة، لكن أخص بالحديث عن أبحاث **محمد عابد الجابري** (1935-2010) التي ساهمت في مجال نقد العقل

العربي في بناء جملة من المواقف في موضوع نقد التراث العربي الإسلامي، وهذا ما جعل الفكر الفلسفي المغربي يتبوأ مكانة خاصة في الفكر العربي المعاصر.

ومن منطلق أن الفكر لا ينشأ من فراغ بل متكئ على تراث تاريخي حضاري فكري مختلف من المطلوب قراءته وتفسيره وفق الشروط الملائمة للقارئ، وأكد أن التراث لا يسلم أيضا من التباس واستشكال وقد اختلف فيه المختلفون اختلافا مذهبيا وإيديولوجيا، وعلى رأسهم الجابري، وفي ظل هذا يمكن التساؤل: لماذا يلح علينا هاجس التراث هذا الإلحاح المؤرق والذي يكاد يجعلنا أمة فريدة في تعلقها بحبال الماضي؟ أليس التراث هو الذي لم يكتب بعد؟ وكيف يمكن بعث الحياة في التراث لجعل العقل العربي قادرا على التجديد - الحداثة؟

وهدفنا من وراء هذا البحث والوقوف على رؤية الجابري التي عملت على إشاعة مواقف وتصورات تاريخية عقلانية ونقدية، وفتح باب الاجتهاد والبحث عن حلول لمشاكل التي يتخبط فيها الوطن العربي، ومحاولة التفكير فيه، أي التفكير في سؤال الحداثة في الفكر العربي المعاصر.

أولا: ضبط مفهوم التراث والحداثة:

أتعريف التراث ومستوياته: 1- معنى التراث: يعرف من الناحية اللغوية كما ورد في لسان العرب لابن منظور بأنه: "ورث، الوارث، صفة من صفات الله عز وجل، وهو الباقي الذي يرث الخلائق... والورث والإرث، والتراث والميراث، وقيل أن الورث والميراث في المال والإرث في الحسب"¹.

أما من الناحية الاصطلاحية: فالتراث هو كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، فهو إذن قضية موروث، ويعتبر نقطة البداية لمسؤولية ثقافية وقومية، وما التجديد إلا إعادة تفسير التراث طبقا لحاجات العصر، فالتراث هو الوسيلة التي تؤدي إلى غاية التجديد، للمساهمة في تطوير الواقع وحل مشكلاته، والقضاء على أسباب معوقاته، وفتح مغاليقه. والتراث ليس قيمة

- ابن منظور: لسان العرب المحيط، قدمه: الشيخ عبد الله العلال، دار الجيل، بيروت، 1988، ص 907¹.

في ذاته إلا بقدر ما يعطي من نظرية علمية في تفسير الواقع والعمل على تطويره، فهو ليس متحفا للأفكار نفخر بها وننظر إليها بإعجاب ونقف أمامها في انبهار، بل هو نظرية للعمل وموجه للسلوك².

ويعتبر التراث نتاج بشري يعبر عن كينونة الذات ضمن شروط تاريخية أسهمت في تشكيل خصوصيات الأفراد الذين أنجزوا بفعل الإبداع رؤيتهم الخاصة للوجود، وهو إن كان ثابتا لدى منتجته فهو متحول في الأزمنة والعصور، يحتمل الإضافة والتطوير بفعل القراءة الواعية لهذه الأنساق³. كما يعرف بأنه كل ما ورثناه تاريخيا عن أسلافنا الذين هم الأمة البشرية التي نحن امتداد طبيعي لها⁴.

ويعرفه الجابري: " بأنه كل ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي سواء ماضينا أو ماضي غيرنا القريب منه والبعيد". فالتراث بمفهوم الجابري هو ذلك الكل من الماضي الذي يحضر فينا، فيشكلنا مما يجعل منه جزءا من حاضرنا يرافقنا في بناء المستقبل، وهو لا يقصره على الأنا فقط بل يتعداه إلى الآخر، سواء كان الغرب أم تراث الأمم الأخرى من الشرقيين، والتي كان لها دور كبير في بناء الحضارة العربية قديما⁵، وحسب الجابري لم يرد لفظ التراث في الفكر العربي القديم، وإنما ارتبط ظهوره عند النهضة العربية، وهو عبارة عن الموروث الثقافي والفكري والديني والفني، أي ليس مجرد تركة يرثها الفرد⁶. وعموما فالتراث هو جملة ما خلفه السلف للخلف من أمور مادية ومعنوية، سواء كانت إنتاجا فكريا وحضاريا.

2- مستويات التراث: يوجد عدة مستويات من التراث:

أ- تراث موجود في المكتبات والمخازن والدور، فهو تراث مكتوب ومخطوط، وتكثر الدعايات لنشره، و إحيائه و

حسن حنفي: التراث ولتجديد، موقفنا من التراث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 4، 1992، ص13.²
- عبد الغني بارة: الهيرمنيوطيقا والفلسفة، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص563.³

جابر عصفور: هوامش على دفتر التنوير، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص22.⁴

الجابري: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، ط2 مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص13.⁵

- المرجع نفسه، ص23.⁶

اختيار ما وافق هوى العصر دون متطلباته. لكن التراث ليس مخزونا ماديا فحسب، ليس موجودا سوريا له استقلال عن الواقع الذي نشأ فيه، بل هو تراث يعبر عن الواقع الأول الذي هو جزء من مكوناته الذي يهدف إلى تطويره. حيث يقول حسن حنفي: "لما كان التراث إذن ليس مخزونا ماديا في المكتبات، وليس كيانا نظريا مستقلا بذاته، فالأولوجود على المستوى المادي والثاني وجود على المستوى السوري، فإن التراث في الحقيقة مخزون نفسي عند الجماهير"⁷.

ادالتراث مازال قيمة حية في وجدان العصر يمكن أن يؤثر فيه، ويكون باعثا على السلوك، وتجديد التراث قضية واقعية ورؤية صائبة للواقع، فالتراث جزء من مكونات الواقع وليس دفاعا عن موروث قديم. وتجديد التراث هو إطلاق لطاقات مختزنة عند الجماهير بدلا من وجود التراث كمصدر لطاقة مختزنة، لا تستعمل أو تصرف بطرق غير سوية على دفعات عشوائية في سلوك قائم على التعصب أو الجهل أو الحمية الدينية، والإيمان الأعمى، أو يستعملها أنصار تثبيت الأوضاع القائمة لحسابهم الخاص من أجل الدفاع عن الثبات الاجتماعي.

وتجديد التراث هو حل لطاسم القديم وللعقد الموروثة، وقضاء على معوقات التطور والتنمية والتمهيد لكل تغير جذري للواقع. وتحليل لعقليتنا المعاصرة هو في نفس الوقت تحليل للتراث لما كان التراث القديم مكونا رئيسيا لعقليتنا المعاصرة، ومن ثم يسهل علينا رؤية الحاضر في الماضي، ورؤية الماضي في الحاضر مما يجعل الفكر حدثا مسائرا لروح العصر ومتغيراته⁸. ومن هنا نتساءل ما معنى الحداثة ما خصائصها؟

ب - معنى الحداثة وخصائصها:

1- معنى الحداثة: يمكن أن نعرفها من الناحية اللغوية. وهذا اللفظ في المعاجم العربية القديمة بمعنى أنها نقيض للقديم، حيث يقول أبو الخليل الفراهيدي: "الحديث هو الجديد من لأشياء"⁹.

ويرد المصطلح في لسان العرب لابن منظور: " بأن الحديث نقيض القديم، والحدوث نقيض القدامة، حدث الشيء يحدث حدوثا وحادثة وأحدثه، فهو محدث وحديث وكذلك أستحدثه" 10.

أما اصطلاحا: أما في المعجم الفلسفي لجميل صليبا فينطلق من تعريف الحادثة وتثبيت مقوماتها من منطلق الاعتبارات النقدية العربية للحادثة ورؤيتها للقديم والحديث، في ظل شروط الحادثة العربية التي ترى أن الحديث ليس خيرا كلهن والقديم ليس شرا كله، وخير وسيلة للجمع بين محاسن القديم والحديث أن يتصف أصحاب الحديث بالأصالة والعراقة والقوة والابتكار وان يتخلى أصحاب القديم عن كل ما لا يوافق روح العصر من التقاليد البالية والأساليب الجامدة¹¹.

فقد تعدد تعريفها، فعند بعضهم عبارة عن حقيقة تاريخية متواصلة، ابتدأت في أقطار الغرب ثم انتقلت أثارها إلى العالم بأسره، بدءاً من القرن 16 م بفضل حركة النهضة والإصلاح الديني...الخ.

وهناك من قال: " أن الحادثة هي النهوض بأسباب العقل والتقدم والتحرر"، أو هي ممارسة السیادات الثلاث عن طريق العلم التقنية- السيادة على لطبيعة وعلى المجتمع والذات، كما نجد من يقصرها على مجرد قطع الصلة بالتراث، أو أنها طلب الجديد، أو أنها الديمقراطية، أو العلمانية، وفي هذا يقول طه عبد الرحمن: " أما هذا التعدد أو التردد في المفاهيم الخاصة بالحادثة، فلا عجب أن يقال كذلك إنها مشروع غير مكتمل" 12. وبما أن التعريف المنطقي هو الذي يتم بذكر خصائصه الأساسية المميزة له، فإن الحادثة تتميز بخصائص أساسية، فما هي؟

2- خصائص الحادثة: يميز طه عبد الرحمن من أجل ضبط مفهوم الحادثة بين روح الحادثة وواقعها، حيث يقر أن خصائص روح الحادثة تظهر وتقوم على مبادئ والتي يفترض على الواقع الحداثي تحقيقها، وهي:

أ- مبدأ الرشد: فالأصل في الحادثة هو الانتقال من حال القصور أو التبعية للغير إلى حالة الرشد أو الاستقلال من أجل إثبات ذاته،

لأن: " الإنسان الراشد مطلق الحركة قوي الذات"، وكذا الإبداع وإنشاء قيم جديدة.

ب - مبدأ النقد: وهو أصل الحادثة أي الانتقال من حال الاعتقاد إلى حال الانتقاد، ويقوم على ركنين:

- العقلنة: إخضاع كل الظواهر إلى مبادئ عقلية، والتفريق: أي نقل الشيء من صفة التجانس إلى التباين، وتميزت الحادثة بهذا التفصيل في مختلف أشكال الحياة الجماعية والفردية بمختلف مجالاتها.

ج - مبدأ الشمول: إن الحادثة هي الخروج من حال الخصوص إلى الشمول، فالشمول الحداثي عبارة عن تجاوز لهذه الخصوصية بنوعيتها، أي خصوصية المجال والمجتمع، ويجب أن يبنى على ركنين هما: **التوسع** بحيث لا يجب حصر الحادثة في مجال أو مجالات. **والتعميم:** أي عدم إبقاء الحادثة حبيسة المجتمع الذي نشأت فيه بل يجب نقل ما صنعتته من منتجات عالية إلى بقية المجتمعات، وبالتالي فتح عهد جديد في الحادثة هو عهد العولمة، حيث يقول **طه عبد الرحمن:** " فخصائص الروح الحداثية هي أنها روح رائدة وناقدة وشاملة"¹³.

وكخلاصة نقول أن الحادثة سؤال لا ينقطع وهو دائم البحث عن الأفاق التي تجعله متجددا، منطلقا من مكان لآخر رافضا الانغلاق الذي يبقيه حبيس نفسه منفتحا حيث يجد الحرية التي تبقيه مغامرا لا يأبه بالمطلقات التي ويساير روح العصر ملبيا لمتطلبات الواقع المتغير.

ثانيا: قراءة التراث ومنهجه عند الجابري:

أ- عوائق القراءة الحداثية للتراث وشروط تجاوزها:

1- أزمة التحديث أو الإبداع: الملاحظ أن الفكر العربي الحديث والمعاصر لم يسجل أي تقدم في أية قضية من قضاياها كخطاب يبشر بالنهضة، وهذا راجع إلى وجود عوامل جعلت زمن الفكر العربي زمنا ميتا يعاني أزمة إبداع، تظهر في:

أ- أنه فكر محكوم بقالب أو براديعم السلف، والذي يشكل الإطار المرجعي لكل الاتجاهات الفكرية، فبه يفكر وعليه يقيس.. الخ، ومنه فهو الذي: " يغذي عوائق التقدم والإبداع في الفكر العربي،... ويجعل الذاكرة - السلف - وبالتالي العاطفة واللاعقل تنوب فيه عن العقل"15.

ب - كما أن المفاهيم العربية غير محددة في الخطاب العربي، أي لا تحيل إلى شيء واضح ومحدد في الواقع العربي، فالعلاقات المنطقية في الخطاب غير مضبوطة، تنوب عن بعضها وتتحول إلى بدائل خطابية كلامية بدل أن تكون تعبر عن معطيات واقعية، أي أنه لا يستطيع أن يفكر في موضوعه إلا من خلال ما ينقله عن الآخر الماضي أو الآخر الغرب، ولهذا فهو وعي مستلب مزيف، وعي لا يضع حلمه موضع القابل للتحقيق من خلال الشروط التي ترجح تحقيقه. ومنه يؤدي بالفكر العربي إلى عدم الاستقلال التاريخي.

ج - إضافة إلى ذلك كونه فكرا إشكاليا ماورائيا يتعامل مع الممكنات الذهنية كمعطيات واقعية ويكرس خطاب اللاعقل في مملكة العقل. حيث يقول الجابري في مقدمة كتابه: "تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة": " نحن هنا في الوطن العربي مازلنا متخلفين عن ركب الفكر العلمي تقنيًا وتفكيرًا، وما زالت الدراسات الفلسفية عندنا منشغلة بالأراء الميتافيزيقية أكثر من اهتمامها بقضايا العلم والمعرفة والتكنولوجيا، والتي انعكست أثره على جامعاتنا ومناخنا الثقافي العام، هذا في وقت نحن فيه في أحوج ما نكون إلى تحديث العقل العربي وتحديث الذهنية العربية"16.

يؤكد الجابري أن المهمة الأولى المطروحة على الفكر العربي هو تحقيق الاستقلال التاريخي للذات العربية، وليس من سبيل لذلك إلا بالتححرر أولاً من سلطة النموذج السلف وآليات التفكير التي يكرسها وتكرسه في آن واحد¹⁷. لكن كيف يمكن تجاوز هذه الأزمة أو الفكر الشاذ للوصول إلى الفكر الحدائثي السوي؟

2 - شروط تجاوز الأزمة: لا يمكن تجاوز الأزمة إلا وفق الطرق التالية:

- يجب إعادة بناء الحاضر، وذلك انطلاقاً من عملية إعادة بناء الماضي، بتفكيك عناصره وإعادة ترتيب العلاقة بين أجزائه بصورة تجعله كلا جديداً قادراً على أن يؤسس نهضة. مرهونة بانطلاقها من تراث تعيد بناءه قصد تجاوزه، ومن الخطأ الجسيم الاعتقاد في أن الذات العربية يمكن أن تنهض بالرجوع إلى الماضي، واختبار ما يصلح منه. كما أنه من الخطأ الاعتقاد أن هذه الذات يمكن أن تتقدم بالإعراض الكلي عن ماضيها والانتظام في تراث غير تراثها أو الارتقاء في حاضر يتقدمها بمسافات شاسعة.

- يجب تعميم المعرفة الضرورية باللغات الأجنبية الحية بين المثقفين في المدارس والجامعات، لأن الضعف في اللغات الأجنبية يؤدي بالطالب إلى عدم قدرته على مواكبة التقدم العلمي، ومنه الاهتمام بوضع التعليم في الوطن العربي كما وكيفا، وعدم استنساخ نماذج غربية غريبة عن الوطن العربي.

- العمل على قراءة تراثنا قراءة نقدية معاصرة باختيار المناهج والمفاهيم الجديدة ونوظفها في خدمته، مع العمل على نشر المعرفة العلمية على أوسع نطاق، وهنا نقصد فلسفة العلم لا العلم ذاته، أي المفاهيم وطرائق التفكير المؤسسة لكل معرفة علمية على أوسع نطاق، في المعاهد والكليات، بحيث يمكن أن نرتفع بطلابنا إلى المستوى الذي يمكنهم من أن يعيشوا عصرهم عصر العلم والتكنولوجيا، بكل ما يطرحه من مشاكل نظرية وعملية، ويساهموا في تشييد حضارة عربية في مستوى حضارة العصر علماً وعملاً.

- كما يجب أيضاً وضع إستراتيجيات شاملة من أجل التعامل مع الماضي والحاضر، ولكن لا توضع من طرف الحكومات، بل من طرف نخبة تحمل هم الحاضر والمستقبل.

- والأهم هو قيام نخبة أنتلجنسيا عربية جديدة، تقوم بمحاولة تجديد التراث العربي من الداخل، ودخولها في الفكر العالمي المعاصر ومواكبتها له قصد توظيف أدواته ورؤاه العلمية في إعادة بناء الماضي وتغيير الحاضر وتشييد المستقبل¹⁸.

يرى أن التراث حاضر فينا ومعنا، فإن الاهتمام به ما هو إلا اهتمام بالإنسان نفسه، فالتراث عنده ضروري لفهم الحاضر، ومادام كذلك فلا بد من أن يكون التعامل معه وفق شروط علمية، كالتزام الموضوعية¹⁹ والمعقولية²⁰. ويعتمد الجابري في هذا على منهج تحليلي ينطلق فيه من النظر إلى موضوعاته لا بوصفها مجرد مركبات، بل عبارة عن بنى: "أي تفكيك الثابت في كل بنية ليتحول إلى متغير"²¹.

وختلاصة: فإن التعامل مع التراث بموضوعية وعقلانية هي توفيق بين الحداثة والتراث، أي التعامل مع التراث بآليات حدائية، والدفاع عن الحداثة من مدخل نقد التراث، وهو مشروع متطلع لتمثل أسس المعاصرة دون إتباع أو تقليد، ومعناه أن القراءة المعاصرة للتراث هو جعل النص التراثي معاصرا لنفسه في إطاره الإبستيمولوجيوالسوسيو تاريخي، وكذا ربطه بنا على صعيد الفهم والمعقولية، ولا يجب الارتباط بالقديم فقط ولا الانصهار مع الغير، بل تكمن في كسر قيود التقليد وقطع خيوط التبعية". ولكن السؤال المطروح كيف يتم قراءة التراث بآليات حدائية؟

ب - كيفية قراءة التراث: إن الحل عند الجابري كما هو عند أركون: " يكمن في توليد فكر نقدي جديد عن التراث في الساحة العربية والإسلامية، بحيث يعاد كتابة تاريخنا الثقافي بصورة عقلانية وبروح نقدية، لأنه من خلال ممارسة العقلانية النقدية في تراثنا نكتسب عقلانية ستكون هي التربة الصالحة الغنية الخصبة"²²، وبهذا يجب التخلص من النظرة المفاخرة بالتراث والانطواء على الذات، كآلية دفاعية نلجأ إليها لمواجهة الواقع الذي يربينا، والشعور بالدونية أمام الذي بلغ الرقي والسيادة.

ولهذا كان الحل هو الروح النقدية التي ارتبطت عند الجابري بالعقلانية، والعودة إلى الماضي لإحياء التراث والذهاب إليه حيث هو، لا لإحضار هليسا هم في حل الأزمات وما أكثرها، ويكون الناتج هو التراث نفسه، أو كما قال الجابري: " الفهم التراثي للتراث"، فيهاجم هذا التيار، والذي غالبا ما يطلق عليه صفة السلفي، فكل قراءة تحاول أنتسائله تتهم بالبدعة والكفر من

طرفهم، ذلك لأن الهالة القدسية المرتبطة بالقرآن باعتباره نصا مقدسا انتقلت إلى التراث البشري بما فيها النصوص التي نتجت عن شرح الأصل، وفي هذا وقع الخلط بين التراث والدين، فلم يتوقف أحد للفصل بين التراث البشري والدين السماوي، ليؤكد أن التراث كله، كما هو بالفعل جهد بشري قابل للتقييم المحايد. ولهذا فإن ما يؤاخذ الجابري على التيار السلفي المحافظ هو أنه حول الوسيلة إلى غاية: " فالماضي الذي أعيد بناؤه بسرعة قصد الارتكاز عليه للنهوض أصبح هو نفسه مشروع النهضة".

فهذا التحول في الهدف قد أضفى على المستقبل صفة ماضوية، أو أصبح صورة من الماضي، وإذا كان الجابري يرى أن الآلية الدفاعية مشروطة عندما تكون جزءا من مشروع للتقدم، انتهى حسب البعض إلى وعي تخيلي بالتراث حتى وهو يستعمله للتقدم.

وحتى التيار الليبرالي الذي أراد أن ينتج وعيا عمليا ونقديا للتراث، وهو ينظر إلى الحاضر بمنظار غريب قد فشل حسب الجابري في تحقيق مسعاه، لأنه قد وقع في التبعية التي يحسبها علامة ضعف فيه، لأن التبعية للآخر هو الوجه الآخر لاتباعية التراث، وكان الفشل مصير كل المحاولات، فبقي العرب تأهين بين نقيضين، الانبهار بما وصل إليه الغرب من تقدم علمي وتكنولوجي، وبين الحفاظ على الهوية وعدم الاندماج في الحضارة الغربية التي تسعى للسيطرة والهيمنة، أن التراث هنا قد وظف كسلاح أيديولوجي لمقاومة التحديات.

وللنهوض حسب الجابري يجب إعادة النظر في العلاقة بين الماضي والحاضر، وهي عملية تتطلب التخطيط في آن واحد لثقافة الماضي وثقافة المستقبل، فالتخطيط لثقافة الماضي، معناه إعادة كتابة تاريخها، وبالتالي إعادة تأسيسها في وعينا، وإعادة بنائها كتراث لنا نحتويه بدل أن يحتوينا، أما التخطيط لثقافة المستقبل فمعناه توفير شروط المواكبة والمشاركة، أي مواكبة الفكر المعاصر والمشاركة في إغنائه وتوجيهه²³.

والواقع يثبت أن التاريخ الثقافي السائد الآن هو في مجمله مجرد اجترار وتكرار وإعادة إنتاج بشكل رديء للتاريخ الثقافي نفسه

الذي كتبه أجدادنا تحت ضغط الصراعات وفي حدود الإمكانيات العلمية والمنهجية التي كانت متوافرة عندهم، ولهذا نحن مازلنا سجناء الرؤية والمفاهيم والمناهج التي وجهتهم، مما يجبرنا دون أن نشعر إلى الانخراط في صراعات الماضي ومشاكله، إلى جعل حاضرنا مشغولا بمشاكل ماضينا، وبالتالي النظر إلى المستقبل بتوجيه من مشاكل الماضي والحاضر معا.

ولقد كانت طريقة القدماء مبررة تماما في عصرهم، ولا معنى لانتقادهم، وإنما الانتقاد يكون لنا، لأننا انقدنا آليا دون وعي لتراث كانت نتاج ظروف تاريخية خاصة بهم وتعاملنا معه، وكأنه حقيقة مطلقة. والتاريخ العربي اليوم هو تاريخ ممزق راكد لا يقدم لنا صورة واضحة ومتكاملة عن كلية الفكر العربي، ولا عن صراعاته ومراحل تطوره²⁴.

ب - منهج الجابري في قراءة التراث:

1- خطوات منهج قراءة التراث:

أ- ضرورة القطيعة: ويقصد ليس الانفصال الكلي عن التراث ذاته، بل القطيعة هي نوع من العلاقة مع التراث، والتي تحولنا من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث أي إلى شخصيات يشكل التراث أحد مقوماتها²⁵.

ب - فصل الذات عن الموضوع المقروء: أي تحرير الذات من هيمنة النص التراثي، والذي يتحقق من خلا الثلاثية المنهجية التالية: 1- المعالجة البنيوية: كطريقة في التفكيك البنيوي، بحيث ينظر فيها إلى النص التراثي ككل تتحكم فيه الثوابت التي يجربها عليها حول تركيز فكر صاحب النص حول إشكالية واضحة²⁶.

2- التحليل التاريخي: أي دراسة النص دراسة تاريخية لربطه بكل امتداداته المختلفة المجال.

3- الطرح الإيديولوجي: أي كشف هدف النص الإيديولوجي.

ج - وصل القارئ بالمقروء: حيث يكون الاتصال اتصالا واعيا تحقيقا للاستمرارية، أي ضرورة الحدث الإستشراقي كحق الذات القارئة التي: " تحاول أن تقرأ نفسها في الذات المقروءة، ولكن

مع الاحتفاظ لهذه الأخيرة بكيانها الذاتي كاملا ومستقلا، الشيء الذي أن لذت تبي محافظة على وعيها وبكامل شخصيتها"²⁷.

والملاحظ أن فكر الجابري من خلال نقده للفكر العربي، نلاحظ أن مشروعه قد اتسم بنوع من البراغماتية الحركية الواسعة، منهجيا ووظيفيا، من خلال دمه لمفاهيم مختلفة من مجالات معرفية متعددة، لها دلالاتها الخاصة، بحيث استعملها استعمالا متحررا، حيث يقول: "إننا لا نتقيد في توظيفنا تلك المفاهيم بنفس الحدود والقيود التي توطرها في إطارها المرجعي الأصلي، بل كثيرا ما نتعامل معها بحرية واسعة، ذلك لأننا لا نعتبر هذه المفاهيم قوالب نهائية، بل أدوات فقط للعمل، يجب استعمالها في كل موضوع بالكيفية التي تجعلها منتجة"²⁸.

وإذا حق للجابري أن يرى بأن العقل العربي قد ظل طوال تاريخه عقلا كميئا محتفظا بأحكام متعالية وقيمة كلية، فإنه لا يحق له أن يختزل هذا العقل إلى مجموعة من الأحكام التجريبية التي أسسها العقل الغربي، والتي يعتمده الجابري أساسا مرجعيا لنقد العقل العربي. وقد كان في عرضه يقارن بين المفاهيم الغربية المستوحاة من الفلسفة الإغريقية، وبين التصورات الإسلامية وخصائص كل منهما دون أن يرجح تصورا على آخر، ليترك للقارئ الحرية في اختيار ما يشاء من التصورات التي تخدمه.

والبين أن الجابري يؤكد أنه: "علينا وان نضيف الآن أن عملية التفكير ذاتها لا تتم إلا داخل ثقافة معينة وبواسطتها والتفكير بواسطة ثقافة ما، معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تتشكل إحدائياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها، و في مقدمتها الموروث الثقافي والمحيط الاجتماعي والنظرة إلى المستقبل، بل إلى العالم والكون والإنسان، كما تحدها تلك الثقافة"²⁹.

فحينما يتحدث الجابري عن الفكر الغربي فإنه يقصد به المرجعية أو النظام الذببنتظم داخلها الفكر أو القوة المفكرة، من حيث هي أداة أو آلة للإنتاجيات المتنوعة الكثيرة في الفن والصناعة والعلم... الخ، من حيث هي صانعة لتلك الثقافة التي تصدر عنها القوة المفكرة، أو العقل في التأسيس والنظر، من خلال التفاعل

بين العقل المكون والمفاهيم والتصورات المنشأة من حيث هي عقل مكوّن.

وأصل ذلك أن الجابري ينظر إلى العقل بوصفه فاعلية منتجة للثقافة، كجملة القواعد الفكرية التي يمكن اعتبارها أوليات مؤسسة لتلك الفاعلية أو القاعدة الفكرية الإبيستيمولوجية لتلك الثقافة أو نظامها المعرفي. والنظم المعرفية الثلاثة يقدم كل نظام منها رؤية خاصة للعالم مع توظيف مفاهيمه وتصورات، وفقا لآليات معينة داخل النظام في إنتاج نمط خاص من المعرفة سواء كان النظام معرفيا بيانيا أو عرفانيا أو برهانيا، وقد ربط الجابري هذا النموذج بالمعرفة ربطا غير مبرر، وقد تصارعت هذه الأنظمة الثلاثة مع بعضها البعض داخل الحيز العربي الإسلامي الذي إنتظمها، والذي انتهبانتصار العرفان ثم البيان على البرهان³⁰.

- خاتمة: في الأخير نجد أن الجابري يؤكد على ضرورة إعادة كتابة تاريخنا الثقافي بصورة عقلانية أصيلة وجديدة، وكذا التعامل النقدي العقلاني مع تراث يتوقف على مدما نوظفه بنجاح من المفاهيم والمناهج العلمية المعاصرة ، لذلك كان من الضروري لنا سواء من أجل حل مشاكل ماضينا في وعينا أو من أجل بناء مستقبلنا الثقافي العمل على نشر الثقافة العلمية والفلسفية وتكريس أساليب البحث العلمي ومناهجه، نظريا وعمليا في ساحتنا الثقافية الراهنة، إنه الشرط الضروري لتدشين عصر تدوين جديد يؤسس المستقبل بما يستجيب لمتطلباته ويفي بحاجاته". كما يدعو إلى دراسة الفكر العلمي الحديث وتطوره والاجتهاد في هضمه وتمثله.

ويؤكد أن الماضي كالمستقبل لا يكتشف ولا يبنى، أو يعاد بناؤه، إلا على أساس الحاضر وانطلاقا منه، حاضرا العلمي هو العلم الحديث، فلنجعل من دراسة هذا العلم موضوعا ومنهاجا، روحا ومناخا، ووسيلة لبناء حاضرا، وبعث ماضينا والانطلاق نحو مستقبلنا، لتسلح إذن بهذه الرؤية الجدلية التي تجعل الحاضر منطلقا لبعث الماضي وبناء المستقبل، إننا إن فعلنا ذلك تجنبنا في آن واحد مخاطر الاغتراب وأغلال الإعتراب.

كما تعتبر قراءة الجابري للتراث قراءة فريدة من نوعها تتأسس على الفهم ومساءلة النص مساءلة حوارية جدلية، بحيث يمكن لأن يستنتق النص ونكشف أسرار الغامضة من أجل جعله نصا حديثا، أي الحفر في الذاكرة بهدف التواصل الحضاري.

كما يمكن القول أن التراث والتجديد يؤسسان معا علما جديدا، وهو وصف للحاضر وكأنه ماض يتحرك، ووصف الماضي على أنه حاضر معاش، خاصة في بيئة كتلك التي نعيشها، حيث الحضارة فيها مازالت قيمة، وحيث الموروث مازال مقبولا، فالحديث عن القديم يمكن من رؤية العصر فيه، وكلما أوغل الباحث في القديم وفك رموزه وطلاسمه أمكن رؤية العصر والقضاء على المعوقات في القديم إلى الأبد، وإبراز مواطن القوة والأصالة لتأسيس نهضتنا المعاصرة، حيث يقول حسن حنفي: "لما كان التراث يشير إلى الماضي والتجديد يشير إلى الحاضر، فإن قضية التراث والتجديد - الحداثة - هي قضية التجانس في الزمان وربط الماضي بالحاضر وإيجاد وحدة التاريخ".

الهوامش:

- 1- ابن منظور : لسان العرب المحيط، قدمه: الشيخ عبد الله العلال، دار الجيل ، بيروت، 1988، ص907.
- 2- حسن حنفي: التراث ولتجديد، موقفنا من التراث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط4، 1992، ص13.
- 3- عبد الغني بارة: الهيرمنيوطيقا والفلسفة ، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص563.
- 4- جابر عصفور: هوامش على دفتر التنوير، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص22.
- 5- الجابري: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، ط2 مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص13.
- 6- المرجع نفسه، ص23.

- 7- حسن حنفي: التراث والتجديد، المرجع السابق، ص ص 14،15.
- 8- المرجع نفسه، ص ص 19،20.
- 9- العين: الخليل أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وآخرون، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1981.
- 10- ابن منظور: لسان العرب، المرجع السابق، ص 131.
- 11- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص 404.
- 12- طه عبد الرحمن: روح الحداثة، المرجع السابق، ص 23.
- 13- المرجع نفسه، ص ص 27،28.
- 14- الجابري تكوين العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، 1984، ص ص 55، 56.
- 15- الجابري: تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة، ج1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1982. ص
- 16- الجابري: تكوين العقل العربي، المصدر السابق، ص 57.
- 17- المصدر نفسه، ص 62.
- 18- الموضوعية: من منظور الجابري هو أن يجعل التراث معاصرا لنفسه، وذلك بفصله عنا والنظر إليه في سياقه المعرفي والسوسيو تاريخي (الجابري: التراث والحداثة، المصدر السابق، ص 47).
- 19- المعقولية: هي النظر إلى التراث بصورة عصرية، أي وفق شروط العصر، من أجل إعادة وصله بنا، وفق مناهج عقلية. (المصدر نفسه، ص 47).
- 20- المصدر نفسه، ص 47.
- 21- محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم - دار الطليعة، بيروت، 2000، ص 303.

- 22- الجابري: نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا، ط6، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص13.
- 23- الجابري: تكوين العقل العربي، المرجع السابق، ص38، 39.
- 24- المصدر نفسه، ص 19.
- 25- نفسه، ص 25.
- 26- نفسه، ص 05.
- 27- الجابري: الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ص ص 6، 7.
- 28- الجابري: إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، ، ط1، 2005، ص78.
- 29- المصدر نفسه، ص 59.
- 30- حسن حنفي: التراث والتجديد، المرجع السابق، ص19.